# علم الاجتماع الحضري عند ابن خلدون

م. نادية صباح محمود الكبابجي [*]

## المقدمة

ان الحديث عن علم الاجتماع الحضري, حديث يبدأ مع قيام الثورة الصناعية عندما بدأت المدينة تجذب الناس إليها من الريف, وأخذت الحياة الاقتصادية تتحول من طابع زراعي لطابع حرفي. ومنذ تلك الفترة لا يفتر الحديث عن البيئة الحضرية, إلا ان اللافت للنظر إن الحديث عن النظرية الحضرية كان من التنوع الكبير إلى حد ان أصبح كل نوع اتجاهاً وتخصصاً له ميزاته حتى طرحت الدعوة إلى توحيدها تحت عنوان علم الاجتماع الحضري المقارن على يد جوبرج عام 1959 في مقالته التي حملت ذات العنوان .

وفحوى ما يمكن ان يسمى بعلم الاجتماع الحضري المقارن يتشكل من متغيرات (المدينة والقيم الثقافية والتكنولوجيا والقوة ) [1], وجاء كل متغير تحت اتجاه من اتجاهات علم الاجتماع الحضري, ناهيك عن طروحات رايزمان الحضرية التي ركزت على طرح نموذجين هما النظرية الحضرية المقارنة التي أكدت على (الاختلافات والفروق بين المجتمعات الحضرية واللاحضرية... أما النموذج الثاني فتمثلته نظريات الإيكولوجيا الحضرية )[2], ومن قبل دراسة أدنافيير عن نمو المدن في القرن التاسع عشر حين خصصت جزءا من دراستها لبحث

---

(*) مدرس في قسم الاجتماع – كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) السيد عبد العاطي السيد / علم الاجتماع الحضري / دار المعرفة الجامعية / الإسكندرية 1996 ص307.

(2) المصدر نفسه ص305.

أخلاقيات أهل المدينة [3], كل ذلك ناقشه ابن خلدون بطريقة علمية وطرحه ضمن نظريته الحضارية– الدائرية, وعلى أساس التناسب الطردي, تطور الحضارة يقابله تطور العمران, الاستقرار السياسي يقابله الاستقرار الاجتماعي .

ولتحقيق ذلك فقد انقسم البحث إلى مقدمة وإطار منهجي وثلاثة مباحث رئيسية : كان عنوان المبحث الأول المدينة مكان وحضارة ناقشت فيه الباحثة أهمية المكان الجغرافي , فضلاً عن أهيمته الاجتماعية عند ابن خلدون وبينت أسباب اختيار بناء المدينة حسب التحديد الخلدوني .

أما المبحث الثاني فقد كان بعنوان المدينة عمران وحضارة الذي ناقش موضوعين: الأول النمو الحضري, وحدد ميزات المدينة من خلال المتغير الاقتصادي, والمتغير المركب من ثلاثة عوامل هي العامل الايكولوجي – الحضري وعامل المصانع وعامل توفر المرافق الخدمية.

في حين ناقش الموضوع الثاني مفهوم الاستمرار الحضاري الذي تمثل ببعد السكان, والبعد الثقافي السياسي.

وأخيراً كان المبحث الثالث بعنوان المدينة طريقة حياة الذي حاول أن يغطي أربعة متغيرات هي: بناء وحضارة, واقتصاد المدينة, وصنائع الحضر والأخلاق الحضرية.

ثم ختم البحث بخاتمة تضمنت أهم الاستنتاجات

---

(3) المصدر نفسه ص296.

## الإطار المنهجي

### مشكلة البحث

تتحدد مشكلة البحث الرئيسة ببحث علم الاجتماع الحضري عند ابن خلدون, وقد تمحورت تلك المشكلة بدراسة المدينة ومتعلقاتها من أسباب اختيار مكان بناءها مروراً بدراسة صنائع الحضر, وأنتهاءاً بدراسة أخلاق الحضر.

### هدف البحث

هدف البحث إلى إبراز جهد ابن خلدون النظري في دراسة علم الاجتماع الحضري, وبيان أهمية نظريته الحضارية – دورة الحضارة في التفسير الحضري للعمران البشري.

### أهمية البحث

تكمن أهمية البحث فيما يكشفه من أفكار حضرية موجودة في مقدمة ابن خلدون, يلعب الكشف عنها دوراً مهماً في تطوير علم الاجتماع الحضري من جهة, وأهمية تراثية فيما يكشفه من أسهام للمفكرين العرب في تطور علم الاجتماع.

### منهج البحث

تم توظيف منهج التحليل الاجتماعي, لما يلعبه من دور بارز في الإفصاح عن الجانب النظري, ولموائمته موضوع البحث الذي يستدعي التحليل, لإثبات تلك الجوانب النظرية – الحضرية في المقدمة.

# المبحث الأول

## المدينة مكان وحضارة

ليس غريباً ان نتحدث عن علم الاجتماع الحضري عند ابن خلدون. بل الغريب ان نهمل هذا العلم من فكر أبن خلدون الاجتماعي. لأنه إذا كانت دورة الحضارة خماسية الإبعاد متمثلة بمراحل تطور الدولة فأن مما لا شك فيه ان يقترن ذلك التطور بالعمران المادي فالحضارة (أنما تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله)[4] .

ولقد قرن دوماً ابن خلدون عظم الحضارة وعمرانها بالعمارة الفارهة, حيث ان العمارة تكون أكثر ضرورة لأنها أساس هذا العمران فان أي اجتماع أو تعاون للبشر لا بد له من ان يتحدد ويتموضع في مكان محدد بجغرافيته, أي لا بد لقالب أو وعاء ينظر هذا الترابط والتواصل البشري والذي يتجسد عملياً في إشكال السكن والعمارة[5] التي تصبح مؤشراً حضرياً و ولذلك كثيراً ما قرن عظم الحضارة, بعظم العمارة, وتماماً كلما ابتعد المجتمع عن الحضارة ابتعد عن المدينة ومبانيها.

ان الطرح الخلدوني للعلاقة ما بين العمارة والحضارة (جاء في سياق اهتمامه الأساسي بالعمران وتتبعه لآلية تحضر الجماعات البشرية على اعتبار أنه

---

(4) عبد الرحمن بن خلدون / مقدمة ابن خلدون / تحقيق حامد احمد الطاهر / دار الفجر للتراث القاهرة ط 1 1425 هـ - 2004 م .

(5) آزاد احمد علي حول العمارة والتشييد عند ابن خلدون / مجموعة باحثين الفكر الاجتماعي الخلدوني – المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية / مركز دراسات الوحدة العربية ط1 بيروت 2004 ص174.

نظر إلى الحضارة بمنظار حسي)[6] وليس تأملي فلسفي , ولعل البيئة أولى مصادر الحسية التي أثارت أبن خلدون فخصص من فهرست المقدمة الباب الأول الذي تكلم فيه عن البنية والمناخ واثر ذلك على الحضارة والجسم الإنساني مما له انعكاسات سلوكية إذ يقول (وأعلم ان أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً مع العبادة من أهل الترف والخصب)[7].

ان المكان عند ابن خلدون مكان اجتماعي قبل أن يكون مكان جغرافي ولذلك فانه حصر اهتمامه بالمكان الذي نمت فيه الحضارة وأهمل المكان الذي غابت عنه الحضارة, وهذا المكان الحضاري ضمن الإقليم الرابع الذي يتوسط المعمورة فلا حرُ مُلهب, ولا بَردٌ قارص, ثم تأخذ الحضارة في التناقص حتى تتلاشى باتجاهنا من الإقليم الرابع إلى الخامس والسادس و السابع ومن الإقليم الرابع باتجاه الثاني والأول. (ان المعمور من هذا المنكشف من الأرض انما هو وسطه, لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال, ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاًً فالإقليم الرابع والذي حافاته من الثالث والخامس اقرب إلى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال, والأول والسابع ابعد بكثير, فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل الحيوانات وجميع

---

(6) المصدر نفسه ص 183.

(7) المقدمة / المصدر السابق/ ص122 .

ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال, وسكانها من الشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً وأقوالاً)[8].

ولما كانت البداوة سابقة على المدينة فإن ابن خلدون قدمها على المدينة في تحليله الاجتماعي وخص الأولى بالحديث عن ما يمكن تسميته ببدايات تأسيس الدول, اما المدينة فإن ابن خلدون ناقشها والدولة مكتملة النشؤ بل أنها إما في فتوة أو كهولة تنازع الموت والاندثار.

وفي ذلك وضع ابن خلدون المدينة في مرتبة ومكانة حضارية متقدمة بل ان (التمدن غاية للبدو ويجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها) [9], وقد يبدو ذلك منطقياً من الناحية التطورية فالدولة البدوية وقد توطدت أركانها فلابد للملك من مدينة يسوس فيها دولته الجديدة وقد توطدت أركانها وشاع الأمن في ربوعها فيشرع مؤسسوها ببناء المدينة كدلالة أولى على النجاح السياسي ودلالة ثانية على بلوغهم مرحلة الحضرية وقد استقرت حالهم, (الذي يدعو إلى المدن والدعة والسكون)[10].

لقد درس ابن خلدون موضوعات المدينة ولعل في مقدمتها اختيار المكان الجغرافي من ناحيتين أساسيتين هما دفع المضار وجلب المنافع كي تدام المدينة, ولا بد من الإشارة في هذا المقام إن الايكولوجية الخلدونية انما هي ايكولوجية حضارية وليست مجرد تصميم أساسي بلغة التخطيط الحضري فالبناء (واختطاط

(8) المقدمة / المصدر السابق / ص113.

(9) المصدر نفسه / ص 16.

(10) المصدر نفسه / ص435.

المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة) [11] فكان علم الاجتماع الحضري لديه عاماً دون الحديث عن الجزئيات الصغيرة في الحديث عن المدينة سوى المنافع والمضار.

أما دافع المضار فقد راعى فيها ابن خلدون ناحية اختيار مكان المدينة وهو ان يكون مؤمناً من ناحيتين عسكرية, وصحية. اما الناحية العسكرية فيراعى للمدن (ان يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار, وان يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل , وإما باستدارة بحر أو نهر بها, حتى لا يوصل إليها إلا بعد عبور جسر أو قنطرة , فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها) [12].

أما من الناحية الصحية فأن يكون مكان اختيار المدينة طيب الهواء لا فاسده لتلافي ما يمكن أن يحدثه ذلك من أمراض يقول ابن خلدون (ومما يراعى في ذلك الحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض فان الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للحياة الفاسدة... أسرع إليها العفن من مجاورتها... وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس)[13].

ان علم الاجتماع الحضري يدرس (العلاقات بين بني البشر التي تتأثر بالموارد المحددة للبيئة وليست هناك دراسة سوسيولوجية توصف بأنها إيكولوجية دون أن تستخدم جوانب معينة من المؤثرات البيئية بوصفها مبادئ أو أسس يعتمد

---

(11) المقدمة /المصدر السابق / ص417.

(12) المصدر نفسه / ص422.

(13) المصدر نفسه / ص422 – 423.

عليها في التفسير)[14], ولم يكن ابن خلدون ليغيب عنه هذا التصور وهو الذي خص مقدمته ببابٍ عن تأثير الطبيعة على الإنسان, بمعرض الحديث عن تدرج غنى الطبيعة بسبب تدرج الاعتدال الذي جعل ابن خلدون مركزه الإقليم الرابع, كان الحديث عن تدرج حضارية المكان انطلاقا من المركز الإقليم الرابع باتجاهين متعاكسين الإقليمين الأول والسابع, بمعرض ذلك كانت لاشك العلاقة الاجتماعية بل الإنسانية (على مستوى الفرد) علاقة إيكولوجيا عميقة [15] انطلاقا من مبدأ التنوع والتعايش الذي ينبغي (تأويله بمعنى القدرة على التصاحب في الوجود وعلى التعاون في إطار علاقات معقدة, بدلاً من معنى القدرة على القتل والاستغلال والبطش) [16].

فجعل ابن خلدون عنصر التعايش الإنساني مع الطبيعة, عنصراً حيوياً من عناصر حضارية المكان حين جعل العنصر السكاني بكثافته حلاً لمواجهة مشكلة تلوث الطبيعة وفساد هوائها , إذ يقول ( والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج.. وبلد قابس هذه [بعد أن عظمت الحضارة فيه] عندما كانت افريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه, فلم يكن فيها كثير عفن ولا

(14) محمد عاطف ليث / الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر دار المعرفة الجامعية / الإسكندرية 1982 ص107.

(15) أسس الأيكولوجيا العميقة , آرني نيس وهو فيلسوف نرويجي حين نشر مقال عام 1972 كتب مقالة ميز فيها الايكولوجيا الضحلة من الأيكولوجيا العميقة .

(16) تحرير معين رومية / مدخل إلى الفكر الايكولوجي / منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق 2007 ص45.

مرض)[17] فأصبح ابن خلدون بتأويله هذا مثلاً للأيكولوجيا العميقة بشكلها الأولي حين غابت في عصره التكنولوجيا بأجهزتها المروضة للطبيعة القائمة على البطش وتعالي الإنسان على بيئته, إلى علاقة تآلف بين الإنسان والمكان , قائمة على أساس الحركة الاجتماعية للسكان التي بنشاطها تفتح الطبيعة له صدرها فيقل عفنها ومرضها .

ولثاقب بصره البيئوي – الاجتماعي لم يجعل ابن خلدون اختيار المكان حصناً وحيداً للمدينة على هضبة أو بين جبل وانما كَمَلَ ذلك بالعنصر السكاني الذي أحتل عنده مكانة مميزة سواء أكان مؤشراً لوفرة العمران, أو كان عنصراً لاستمرارية حضارية المكان فقرن اختيار المكان بأن يكون (بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخاً للمدينة [أي الأمة] متى طرقها طارق من العدو... كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها ) [18], وقد كانت عصية على الأعداء, لتوافر السكان وإمدادهم المدينة بشرياً في حال الحرب, وانطلاقاً من ذلك فإذا كان مكان المدينة على غير الصورة التي أفترضها أبن خلدون, على منبسط من الأرض غير محصنة فإن المدينة تكون عرضة لمهاجمة العدو حتى إن الدولة العباسية اعتبرت الإسكندرية ثغراً لها أي أحد نقاط المواجهة مع العدو (مع أن الدعوة كانت ورائها ببرقة وأفريقية وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة) [19].

---

(17) المقدمة / المصدر السابق / ص23 .

(18) المصدر نفسه / ص424.

(19) المصدر نفسه /ص424.

ولم يقتصر توفر العنصر السكاني عند ابن خلدون على جانب توفير الحماية وحسب, إنما تعداه إلى ما أسميناه بحضارية المكان فانه لما كانت للدول أمار طبيعية, وأنه لا بد ان تنقضي حسب دورة الحضارة السياسية على الأقل فيكون (لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبل والبساتين بادية يمدها العمران دائماً, فسيكون ذلك حافظاَ لوجودها ويستمر عمرها بعد عمر الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب) [20] فيكون بذلك أبن خلدون قد راعى في اختيار مكان المدينة كل الاحتمالات التي من شأنها أن تأخذ في الاعتبار العوامل الخارجية المتمثلة بطروق العدو للمدينة والعوامل الداخلية على الصعيدين الصحي والحضاري.

أما جلب المنافع عند اختيار المكان فإنه أخذ عند ابن خلدون بعداً اقتصادياً بالدرجة الأولى, إذا إن الاقتصاد إنما هو قوام المدينة وعمادها (أما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها (الماء) وان يكون البلد على نهر, أو بإزائها عيون عذبة ثرة فيكون لهم (للسكان) في وجودهم مرفقة عظيمة... ووما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمهم ..فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده, ومما يراعى أيضا المزارع ... ومن ذلك الشجر للحطب والبناء)[21]

ولم يفت ابن خلدون العامل التجاري إذ ان المدينة ليست مقطوعة عن الخارج فراعى في ذلك (قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية) [22].

(20) المقدمة / المصدر السابق / ص418.

(21) المصدر نفسه / 424.

(22) المصدر نفسه / نفس الصفحة.

إن المراعاة الواجب توفرها من ماء ومرعى وتجارة هي ليست دائماً بنفس المستوى من حيث حاجة المدينة إليها, وقد تكون حاجة المرعى اشد من حاجة قربها من البحر, أو العكس تكون حاجة المدينة من قربها من البحر اشد من حاجتها إلى المرعى حسب رؤية ابن خلدون فدرجة توفر الحاجات كلها ( متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكن)[23].

وأخيرا ينهي ابن خلدون صورته عن حضارية المكان للمدينة بربطه المدينة عموماً بحال الدولة كما أسلفنا (ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها, وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها)[24]

## المبحث الثاني

### المدينة عمران وحضارة

ان الحديث عن المدينة كعمران وحضارة ينطوي على أهم مفاهيم علم الاجتماع الحضري إلا وهو دراسة مظاهر النمو الحضاري وإذا كان (التناول التاريخي لنشأة المدن يبدأ بالموجه الأولى للتحضر في الفترة من 1750 إلى 1950 في كل من أورين وأمريكا الشمالية) [25] فان ابن خلدون يعود بنا إلى القرن الرابع عشر ليناقش موضوع نشأة المدينة والنظر إليها بنظرة شمولية أكثر منها جزئية من خلال رؤيته العمرانية الشاملة التي تجد في توفر عنصر التعاون متغيراً مهما قد

(23) المصدر نفسه / نفس الصفحة.

(24) المصدر نفسه / ص417.

(25 ) - salehabdelazim@hotmail.com

حَصَلَ للإنسان (القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه, فإن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني, وإلا لم يكمل وجودهم, وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم, وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم) [26] الذي هو علم العمران البشري فكان موسوعي الطرح, أحد أجزائه العمران الحضري الذي خصه بثلاثة أبواب من أبواب مقدمته الستة .

وتتمثل شموليته العمرانية للمدينة بقوله (ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع, أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران) [27] وهذا نص صريح لمفهوم ابن خلدون عن المدينة على أنها عمران .

ان المدينة ليست مجرد تجمع سكاني يزداد وينقص بفعل الصناعة ولا مجرد أفراد يخضعون للقوانين المدنية انهم قبل كل شيء مجتمع إنساني لهم روابطهم الاجتماعية, وإذا كانت العصبية هي الرابط لأبناء القبائل فأن (أهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحما وقرابة وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر)[28].

وبحكم هذا التصور عن المدينة نجد ان ابن خلدون يناقش قانون النمو الحضاري من الزاوية المدنية المتمثلة بما يجب توفره فيها حتى تصبح مدينة حضرية ولعل ابرز متغيراتها العامل السكاني حسب تقرير حالة السكان العالمي

(26) المقدمة / مصدر سابق / ص66.

(27) المقدمة / نفس المصدر / ص65.

(28) المقدمة / نفس المصدر / ص427.

لسنة 2007 الذي يؤكد (من بداية صفحاته الأولى على ارتباط السكان بالمدن وازدياد معيشتهم فيها)[29] فيكون بذلك ابن خلدون قد تلمس أول سمات ما يمكن ان نسميه المدينة حين جعل العنصر السكاني مرتبطاً بتطور النمو الحضري للمدينة مضيفاً إليه المؤشرات المادية المكملة للوجود المدني من آلات بناء وصنائع (اعلم ان الأمصار إذا أُختطت تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والكلس ... فيكون بناءها يومئذ بدوياً وآلاتها فاسدة , فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصنائع)[30].

وإذا كان النمو الحضاري هو ذو خط مستقيم لدى بعض علماء الاجتماع الحضري فانه ليس كذلك عند ابن خلدون, فليس من الضروري ان يكون هناك استمرار لهذا النمو فقد يحدث ان يتراجع عمران المدينة فيخف عندئذ ساكنها وتقل (الصنائع لأجل ذلك)[31] وبهذا التغير فان اجتماعية ابن خلدون الحضرية ليست ذو طابع ستاتيكي, انها رؤية للواقع الاجتماعي على الأقل في زمنه حين كانت الدولة لا بد لها حسب تصوره ان تمر بالمرحلة البدوية ثم الزراعية (اما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات)[32], إلا ان المرحلة الصناعية ليست مجرد الت وملحقات مادية أخرى حسب, بل ان الأمر الصناعي عند ابن خلدون غالباً ما ارتبط بالفكر والمعرفة وهو من ابرز منجزات الحضارة المدنية, (اما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار ولهذا لا توجد

---

(29) - salehabdelazim@hotmail.com

(30) المقدمة / المصدر السابق / ص437.

(31) المصدر نفسه / ص437.

(32) المصدر نفسه / ص464.

غالباً إلا من أجل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثانٍ عنه) [33] وبذلك فان التصور الخلدوني تجاوز الإطار الإيكولوجي إلى ما هو أبعد منه ولم تكن الإيكولوجيا عنده إلا تميزاً على صعيد الشكل بما يجاد من تفنن في التصميم (وانما تتم المباني بها فلا بد فن الحذق في تعلمها)[34] .

ان الذي يتفحص أراء ابن خلدون الحضرية على الصعيد الظاهري يستطيع ان يشخص متغيرين لهما الأثر الكبير في تحديد ما تمتاز به المدينة من ميزات: المتغير الاقتصادي والمتغير المركب.

أ – **أما المتغير الاقتصادي** فهو متغير ذو جانبين: العمل والمال. وهما في حالة من التداخل يصعب فصلهما[35]. اما متغير العمل فانه عند ابن خلدون مرتبط بالعمران وهو في غاية الأهمية لأنه احد مؤشرات الحضرية لما يترتب عليه من ترف, واختراع صناعي يفي بالحاجة المتنامية بشكل مطرد مع تنامي العمران فمتى (زاد العمران زادت الأعمال ثانية, ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته, واستنبطت الصنائع لتحصيلها, فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول) [36] إلا إن الزيادة العمرانية التي توازيها زيادة سكانية تكون قد خلقت نمطاً حضرياً من السلوك الاقتصادي لأبناء المجتمع يحتم رخص الأسعار للمواد الأساسية وزيادة أسعار المواد الكمالية والأسر في حالة من المد والجزر ما بين نمو العمران أو ضعفه (فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه, رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناها, وغلت أسعار الكمالي من

(33) المصدر نفسه / نفس الصفحة.

(34) المصدر نفسه / ص434.

(35) إلا إن الباحثة قامت بذلك الفصل لسبب فني متعلق بالتوضيح ليس أكثر

(36) المقدمة / المصدر السابق / ص438.

الآدم والفواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المصر, وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك)[37].

**ب المتغير المركب : ويتشكل من ثلاث مشخصات**

**الأول ايكولوجي – حضري والثاني المصانع والثالث خدمي**

**ويتمثل الأول** بالمباني الكبيرة المستبحرة في الفخامة التي قد يستمر بناءها أجيالاًً حتى تنتهي إلا ان هذا البناء لما يمتاز به من عظم وتفنن يجعل الاختلاف ما بين بناء هذه الأجيال يبدو متلاشياً حتى يبدو وكأنه من عمل جيل أو دولة واحدة على حد قول ابن خلدون, (وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام فيحتاج إلى معاودة أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى ان تتم فيبتدأ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث, وكل واحد منهم قد استكمل شانه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك , ويكمل , فيكون ماثلاُ للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة)[38]

بينما **يتمثل الثاني** بضرورة المصانع الإنتاجية التي تصنع الآلات الخدمية (كالبضائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحول المنزل, وللتأنق في كل واحدة من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة) [39].

**وأخيرا المرفق الخدمي** مما يؤمن استمرارية العاملين السابقين ويؤكد حضورهما من أعمال خدمية ومرافق خدمية تكون كمالية بل انها قد لا تتواجد في المدن المتوسطة في حين أنها أصبحت من ضروريات المدن الكبيرة أو المتوسطة

(37) المصدر نفسه / ص440.

(38) المصدر نفسه / ص421.

(39) المصدر نفسه / ص450.

في العمران (فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها, وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار) [40] وكلما زادت أحوال الترف, بمعنى, كلما زاد الاستهلاك المظهري (تحدث صنائع النوع... ومن هذا الباب الحمامات لأنها انما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغناء والتنعم , ولذلك لا يكون في المدن المتوسطة)[41].

وبهذا نجد ان ابن خلدون قد وضع فوارقاً حضرية ما بين المدن الكبيرة والمدن المتوسطة, انطلاقا من درجة توفر الخدمات التي أصبحت ميزة حضرية , وان كان ابن خلدون لا يذهب في ذلك التعميم إلى مستوى الإطلاق, فهناك استثناء لبعض المدن المتوسطة التي تصبح مركزاً لبعض الدول على مستوى السياسة والاقتصاد, وبهذين المستويين يضيف ابن خلدون نقطة تمييز حضاري للمدينة التي تصبح مدن مستقطبة, في حين أن (الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البدواة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها, وما ذلك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم)[42] فكان امتيازاً عن البداوة.

---

(40) المقدمة / المصدر السابق / 456.

(41) المصدر نفسه / ص456 وأيضا ص484.

(42) المصدر نفسه / ص 447.

## الاستمرار الحضاري

لم يكتف ابن خلدون بعرض عمرانية وحضارية المدينة بل أنه ذهب إلى ما بعد تحقق الاستمرار الحضاري للمدينة ببقائها, وقد تمثل ذلك عنده ببعدين: الأول سكاني والثاني ثقافي سياسي.

فالعامل السكاني تمثل بجعله السكان عنصراً حيوياً رافداً للمدينة حال تعرضها للهجوم من قبل الأعداء أو في حال أنقراض الدولة القديمة وقيام أخرى جديدة , ولتثبيت الدولة الجديدة ( البعد السياسي) .

ففي حالة الاستنجاد بالسكان الذين هم خارج المدينة فذلك أمر طبيعي ليس من باب دفع المضار كما جاء سابقاً , وانما من باب ما أصبح عليه أهل المدينة من حال هم أبعد ما يكونوا فيه عن المقاتلة والقدرة على النهوض للدفاع عن المدينة, (وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذا كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب) (43) ولذلك فإن وجود القبائل بالقرب من هذه المدن فضلاً عن جانب البيئة, إذا كان متوعراً, فإذا ما بلغ القبائل الصريخ كان ذلك للمدينة (منعة من العدو (وييأسون) من طروقها, لما يكابدونه من وعرها, وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها) (44).

ولا يقتصر الحديث عن أهمية سكان الضواحي كقوة مدافعة بل كقوة تحافظ على إدامة المدينة بعد أن تنتهي كوحدة سياسية بفعل انتهاء الدولة التي بَنت المدينة

(43) المقدمة /المصدر السابق / ص25.

(44) المقدمة / المصدر السابق / ص25 .

فيكون (لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يحدها العمران دائما، فيكون ذلك حافظاً لوجودها, ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية)[45] إلا أن النظر إلى السكان كعامل رئيسي لتحقيق الاستمرار الحضاري, فذلك أمر لم يكن يعتقده ابن خلدون إذ لا بد للسكان من مادة تفيد العمران, وإلا انقطعت الحضارة, فأن (لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها , فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا إلى ان يبذعر (يتفرق) ساكنها وتخرب)[46].

**اما البعد الثقافي – السياسي** فقد اختلط عند ابن خلدون فيما يخص تحقيق الاستقرار الحضاري للمدينة, فالبعد الثقافي, فذلك لان حال المدينة الدعة والراحة, ولما كانت القبائل قد أقامت دولتها فانه قد لزمها الاستقرار والأخذ بالعاتق لمواصلة البناء, في حين ان البعد السياسي, فلتثبيت الحكم فيها, وفرض كامل السيطرة عليها خوفاً من ان تصبح ملجئا للمخاصمين سياسياً لأصحاب الملك الجديد وليكون ذلك المصر ( المدينة ) (شحاً في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم)[47] ممن قد تسول له نفسه بالأحقية في الملك وفي ذلك يقول ابن خلدون ان القبائل إذا حصل لها الملك استقرت في المدينة, بل وزاد من فرض سيطرتها على سائر المدن (لأمرين: أحدهما ما يدعوا إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال, واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو والثاني: دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين, لان المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا

(45) المصدر نفسه /ص418.

(46) المصدر نفسه / نفس الصفحة.

(47) المصدر نفسه / ص419.

إليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم) [48] فوجب لذلك عند ابن خلدون إحكام السيطرة على المدينة.

من جانب آخر يضع أمام هذه المعادلة معادلة أخرى, فإذا ما انقرضت الدولة, فان المدينة منقرضة لان عمرها عمر الدولة كما أسلفنا, إلا ان المعادلة الجديدة تأتينا برأي أنه ليس بالضرورة الدولة الجديدة تبني وتشيد مدينة جديدة فأنه قد (ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك أخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها , فتحفظ لتلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة)[49].

## المبحث الثالث

### المدينة طريقة حياة

لم تكن المدينة عند ابن خلدون وفق ما أسلفنا مجرد وحدات سكن مادية, عمائر عظام, بقدر ما كانت تمثل المدينة دلالات حضارية وبهذا التصور يعطي ابن خلدون لعلم الاجتماع الحضري دفقاً نحو الأمام في عصر سبق عصرنا الذي حتمت الضرورة التطورية للمدينة ضرورة قيام علم الاجتماع الحضري, ولعل تصفح آثار علماء الاجتماع الحضريين الأوربيين منهم والأمريكيين على الأقل مرحلة الرواد بما قدموه من أسهام ووضعوه أمام التراث الخلدوني في مقارنة بسيطة نستطيع أن نقول ان بناء ابن خلدون العلمي في الميدان الحضري كان عملاً أصيلاً إلى حد

(48) المقدمة / المصدر السابق /ص419.

(49) المصدر نفسه / ص418.

كبير[50] وبالمقابل ذهبت الاتجاهات الجديدة في علم الاجتماع لجيل ما بعد الرواد إلى تحديد خواص أساسية للحركات الاجتماعية الحضرية وهي (الاستهلاك الجمعي (سلع وخدمات...)..... وهوية ثقافية مرتبطة بمنطقة معينة... والدولة وبخاصة الحكومات المحلية) [51] بل وذهبت تلك الاتجاهات إلى ان أي حركة اجتماعية حضرية ناجحة ينبغي ان تجمع الأهداف الثلاثة) [52] ويزيد عليها ابن خلدون كثيراً فيما خص به العمران الحضري... وهو ما تعمد الباحثة إلى إبرازه على انه كان في مجمله طريقة حياة لسكان المدينة, حتى غدت المدينة شبكة علاقات اجتماعية تغطي مجمل عمليات المجتمع الاجتماعية بما ينسجم وعصرنا الحاضر مع رؤية مدرسة شيكاغو الحضرية فغدت تلك المتغيرات شبكة علاقاتية للحياة الحضرية تغطي مرافقها المادية والمعنوية على المستويات السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

وعلى النحو الآتي

1. بناء وحضارة
2. اقتصاد المدينة ( الحضر)
3. صنائع الحضر(صناعات المدينة)
4. الأخلاق الحضرية (أخلاق أهل المدينة)

(50) غريب محمد احمد والسيد عبد العاطي السيد أنظر علم الاجتماع الريفي والحضري / دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1988 ,ص177 – 215.

(51) ميشل هارالامبوس / اتجاهات جديدة في علم الاجتماع / بيت الحكمة بغداد / 2001 ص361.

(52) المقدمة / مصدر سابق / ص361.

## 1. بناء وحضارة

إذا كانت المدينة قبل كل شيء بناء عظيم, فلا شك ان ذلك عنوان الحضارة, حيث تعكس إيكولوجية البناء نمط الحضارة, وان كان ابن خلدون لا يقصد بالبناء الدور والقصور فقط وانما يتعداه إلى ما يلحق الحياة المدنية من مرافق خدمية وصنائع ومصانع وأسواق عظيمة واقتصاد فذلك قوام مادي لصورة الدولة المدنية (فالدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجدوها وقد تقرر في علوم الحكمة انه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر)[53].

لقد التصق[54] البناء بالحضارة عند ابن خلدون فليست المدن العظيمة عنده إلا نتاج حضارة عظيمة وملك كبير, لما يتطلبه البناء العظيم من قوى عاملة ومواد أولية تعجز الدولة الواحدة عن توفيرها فضلاً عن عامل الزمن الذي يستغرقه بناء العمل العظيم ( حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلاً للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة, وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مآرب, وان الذي بناه سبأ بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً. وعاقه الموت عن إتمامه , فأتمته ملوك حمير من بعده)[55].

من هذا المنطلق ناقش ابن خلدون موضوع البناء على أنه حضارة, فالأمصار والمدن التي بأفريقيا قليلة لغلبة الطابع البدوي عليها (وكان عمرانها كله بدوياً ولم تستمر فيه 9م الحضارة حتى تستكمل أحوالها.. وأيضا فالصنائع بعيدة عن

(53) المقدمة / المصدر السابق / ص455.

(54) ولما كانت الإحاطة بكل مفاصل المدينة (الإيكولوجية –البناء ) على إنها انعكاس للحضارة , في بحث , فقد اكتفت الباحثة إلى مؤشرات لذلك .

(55) المصدر نفسه / ص421.

البربر لأنهم أعرق من البدو, والصنائع من توابع الحضارة وانما تتم المباني بها , فلابد فن الحذق في تعلمها)(56)

ان ربط البناء بالحضارة جاء حسب مخطط ابن خلدون الحضاري, المتعلق بدورة الحضارة فكما ان الاستقرار يكون في وسط عمر الدولة وتتنشط العلوم فيه كذا حال البناء ويزداد الاهتمام بأهل السيف(*) يقل الاهتمام بالعقار والبناء في أواخر الدولة وأول الأخرى حيث (تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها, بتلاشي الأموال فترخص قيمتها وتتملك بالأثمان اليسيرة, وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر, وقد استجدا المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ)(57).

ومناقشة ابن خلدون لهذا الجدل ما بين البناء والحضارة مرتبط برؤيته عن الاستمرار الحضاري, فمعادلة (البناء ⟸الحضارة) ليست ذات وجهين لأنهما قطبين , يبدوان منفصلين, أنهما (البناء ⟺الحضارة) انما وجه واحد لمادة واحدة تحمل متغيرات فرعية, ربما لم تلقى العناية من قبل الباحثين ولعل في مقدمتها البناء المديني (الحضري) وحجم أو كثافة السكان, والعمل الصناعي, آلاته التقنية والبشرية, في حين حظيت باقي نظريته عن الدورة الحضارية من الناحية السياسية بالاهتمام الكبير. فكانت رؤية ابن خلدون وفق هذا التصور أحادية الاتجاه بالنسبة لمن يقرأ ما كتب عن ابن خلدون , والمتفحص للمقدة الناظر إليها بعين موضوعي,

---

(56) المصدر نفسه / ص435.

(*) ( الجيش والشرطة وما شاكل) .

(57) المصدر نفسه / ص445.

يجد ان ابن خلدون قد جعل للدورة الحضارية السياسية, وجهاً مقابلاً لها تمثل بالبناء.

## 2 . اقتصاد المدينة (الحضر)

لما كان لكل نمط حضاري ما يميزه ثقافياً, وانعكس التميز إلى جوانب عدة كان أوضحها من الناحية الحضارية النشاط الاقتصادي, فنجد الرعي والسعي وراء الكلأ عند البدو, والفلاحة عند أهل الريف, اما المدينة فقد حاول ابن خلدون تحديد اقتصادها, وهو عنده لا يتشكل دفعة واحدة, (وانما يكون ملكهم وتأثلهم [*] تدريجياً)[58] والتدرج يعد مسألة طبيعية عند ابن خلدون وفق نظريته الحضارية التي يلعب العمق في خبرتها .

ان الاقتصاد الحضري عند ابن خلدون يتحدد بعاملين : هما الوراثة (من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثير منهم إلى الواحد أو أكثر لذلك... أو يكون بحوالة الأسواق : فأن العقار في أواخر الدولة وأول الأخرى... وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأموال فترخص قيمها وتتملك بالأثمان اليسيرة, وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر, وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية... فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأولى)[59].

ويكون من أثر ذلك الاقتصاد ان يزداد الرخاء الاقتصادي, ونستطيع ان نقول ان ابن خلدون كان يقول ان من آثار ذلكم الاقتصاد تشكل طبقة من الأثرياء الذين يمولون السوق, ويديرونه. فتنموا أموالهم وإذا حصل ذلك (فربما امتدت إليه أعين

---

(*) أي ثرائهم الكبير .

(58) المقدمة / المصدر السابق/ ص445.

(59) المصدر نفسه/ نفس الصفحة.

الأمراء والولاة, واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعة منهم, ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب)[60].

ان ابن خلدون بتحليله للاقتصادي الحضري وما يحيط به من عوامل سياسية تنعكس كلها على تحليله الاجتماعي لمجتمع المدينة (وذلك ان الحضري إذا عظم تحوله... وانقسمت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليه الأمراء والملوك وغصو به ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده... فلا بد حينئذ لصاحب المال... من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في امنها من طوارق التعدي)[61] وبهذا الرأي أصبح الاقتصاد الحضري اقتصاداً مميزاً بميزة طبيعة الحياة داخل المدينة خاصة وانه تحدث عن وجود العصبية في الأمصار (وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلى ان يكونوا لحماً لحماً وقرابة وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله)[62].

ولم يتوقف ابن خلدون عند ذلك بل انه أدخل المدينة في دورته الحضارية حينما جعل أبناءها بناة دول, خاصة عندما تهرم الدولة ويضعف سلطانها عندئذ يحتاج (اهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى... فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيع والأحلاف... حتى

---

(60) المصدر نفسه / ص446.

(61) المقدمة / المصدر السابق /ص446.

(62) المصدر نفسه / ص457.

يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظافر الخادشة... فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجد والهرم)[63].

## 3. صنائع الحضر ( صناعات المدينة )

ان ابن خلدون وهو يعرض الصنائع, لا يخرج عن إطار نظريته الحضارية, بأن الصناعة تتناسب مع الحضارة , فعلى عظم الحضارة تعظم الصناعة( وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها, مما تدعوا إليه عوائد الترف وأحواله) [64] اما إذا قل العمران فقد قلت الصنائع ولذلك فان كثيراً ما أشار ابن خلدون وذكر بهذه الحقيقة , مدللاً على ذلك بالمقارنة ما بين حاجة الأمصار إلى صناعة دون أخرى, أو اندثار صناعة دون الأخرى ما بين البدو والحضر.

ولما كانت الصنائع تلبي حاجات الناس, وهؤلاء يقطنون البادية والحضر, فأصبحت صنائعهم بالتالي هي الأخرى متنوعة, وقد تنبه ابن خلدون لذلك في معرض حديثه عن الكسب ووجوه المعاش, وقد حدده بالفلاحة والصناعة والتجارة.

الفلاحة ( الزراعة) تجده معاشاً لا يمارسه (احد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين)[65] أما الصنائع فقد خصها ابن خلدون بالعمران الحضري فهي لا توجد ( ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة) [66] وأخيرا التجارة

---

(63) المصدر نفسه / ص457.

(64) المصدر نفسه / ص484.

(65) المقدمة / المصدر السابق / ص467.

(66) المصدر نفسه / ص483.

وفيما يخصها كان ابن خلدون ثاقب النظرة الاجتماعي فلم يحصرها في بدو أو ريف أو حضر وانما جعلها متصلة بما يتمتع به التاجر من صفات بغض النظر عن انتمائه الحضاري ومن هذه الصفات الجرأة والجاه (واما من كان فاقداً للجرأة والإقدام من نفسه, وفاقد الجاه من الحكام فينبغي له ان يتجنب التجارة لأنه يعرض بماله للذهاب والمضيعة ويصير مأكلة للباعة, ولا يكاد ينتصف منهم, لان الناس في الغالب متطلعون إلى ما في أيدي الناس, ولولا وازع الأحكام ما سلم لأحد شيء مما في يده وخصوصاً الباعة وسفلة الناس ورعاعهم)[67].

والصنائع وان كانت قائمة في العمران الحضري لم يفت ابن خلدون الحديث عن الصنائع المشتركة بين الريف والمدينة , ولذلك فقد صنف الصنائع إلى صنفين هما:

1. الصنائع المشتركة , بين البدو والحضر
2. الصنائع الخاصة بالحضر فقط.

## 1. الصنائع المشتركة بين البدو والحضر

وتتمثل بصناعة النجارة وصناعة الحياكة والخياطة. وصناعة النجارة لما فيها من منافع (لأهل البدو والحضر, فأما اهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لضعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم. وأما اهل الحضر فالسقف لبيوتهم والإغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم)[68].

---

(67) المصدر نفسه / ص480.

(68) المصدر نفسه / 493

اما صناعة الحياكة والخياطة فيتباين مقتنوها بين البادية والحاضرة, (فان كانوا بادية اقتصروا عليه (الثوب من الحياكة) وان مالوا إلى الحضارة فضلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن...والصناعة الملائمة هي الخياطة[69]).

## 2 . الصنائع الخاصة بالحضر . وهي عند ابن خلدون خمسة

**أ . صناعة البناء:** وهي صناعة حضرية ولها متعلقات لا تقوم إلا في المدينة أما حضريتها فلأنها (أول صنائع العمران الحضري وأقدمها, وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن (الستر) والمأوى في المدن) [70] ولا يفوت ابن خلدون ان يبين حال اختلاف هذه الصناعة باختلاف (أحوال البناء في المدن, كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج أهوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر)[71]

ومن متعلقات صناعة البناء (تجلل الحيطان بالكلس... وعمل السقف... ومنها ما يرجع إلى التنميق والتزين, كما تصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة).

ثم يعرض ابن خلدون بعد ذلك لأهل هذه الصناعة وهم متفاوتون عنده (فمنهم البصير الماهر, ومنهم القاصر)[72] ومنهم من يعرف (أشياء من الهندسة)[73].

(69) المصدر نفسه / 495.

(70) المصدر نفسه / ص490.

(71) المصدر نفسه / نفس الصفحة .

(72) المصدر نفسه / ص493

(73) المصدر نفسه / نفس الصفحة

**ب . صناعة الطب** : ولاهيمتها الحضرية يفرد ابن خلدون عنواناً لها مفاده [في صناعة الطب] وانها محتاج إليها في الحوافر والمصار دون البادية (لما عرف من فائدتها)[74], وتأتي اهيتها الحضرية حسب ابن خلدون من باب ان الحضارة هي التنمق في العيش, والإفراط في ذلك مما يجلب لأهل الحضر المرض( لخصب عيشهم وكثرة مأكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية... فربما عددنا في اللون الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان , فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون بعيدا عن ملائمة البدن وأجزائه) [75] أما البدو فهم في غير حاجة للطب لقلة أكلهم (في الغالب... فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملائمة البدن... ثم أن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد .. فتقل حاجتهم إلى الطب, ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية)[76].

**جـ. صناعة الخط** : وهي صناعة مرتبطة بالتعليم وهي على(قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب, لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدمنا ان هذا شأنها وانها تابعة للعمران, ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يقرأون ولا يكتبون, ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقرائته غير نافذة ) [77] ثم يعرض ابن خلدون عموماً تطور هذه الصناعة وتبدل أحوالها في الدولة الإسلامية مشرقاً ومغربا ً.

---

(74) المقدمة / مصدر سابق / ص498.

(75) نفس المصدر السابق / ص501.

(76) المصدر نفسه / ص501.

(77) المقدمة / المصدر السابق / ص502

**د. صناعة الوراقة** : وهي من مكملات الصنائع الحضرية التي ربما لا تتواجد في المدن المتوسطة وانما اختصت بها (الأمصار العظيمة العمران. وكانت السجلات أولاً لأنتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات... في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد... ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عما ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه... وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت)[78].

**هـ. صناعة الغناء** : وفي هذه الصناعة يرسم ابن خلدون صورة الحياة الاجتماعية للمدينة بشكل دقيق فيقول عن الغناء (أو فأعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي وتفننوا فيه فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون من سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات)[79]

والصنائع الحضرية على عمومها لا تكمل إلا (بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في آمر البناء إلى غير قطرها)[80].

---

(78) المصدر نفسه / ص509.

(79) المصدر نفسه / ص514.

(80) المصدر نفسه / ص492

## 4 . الأخلاق الحضرية ( أخلاق أهل المدينة)

الحضارة مفسدة العمران, لما كانت الغاية القصوى منها, ولا مزيد ورائها, والفساد عند ابن خلدون ينقسم إلى قسمين: فساد اقتصاد المدينة, ثم فساد أخلاق أهلها, إذ لا يمكن الفصل بين هذين القسمين لما بينهما من ترابط.

وأول مفسدة لاقتصاد المدينة ظاهرة الغلاء التي تقود إلى جملة من المشاكل الاقتصادية يقول ابن خلدون بهذا الخصوص (وقد كنا قدمنا ان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس غلاء, لان الحضارة انما تكون عند نهاية الدولة في استفحالها, وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خراجها, والمكوس تعود على البياعات بالغلاء, لان السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم وجميع ما ينفقونه... فتعظم نفقات أهل الحاضرة... ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكد الأسواق وتفسد حال المدينة)[81].

ويصاحب هذا الفساد الاقتصادي فساداً أخلاقي على المستوى السلوكي, فهم بعد ان (القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم) [82] تفرغوا لإشباع ملاذهم حتى فسدت أنفسهم (لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها) [83] حتى أصبح انقيادهم لملذاتهم

---

(81) المقدمة / المصدر السابق / ص

(82) المصدر نفسه / 166.

(83) المصدر نفسه / ص164 .

بما يخالف قواعد الحشمة والوقار, ويخلص ابن خلدون في خاتمة بحثه عن أخلاق الحضر بالقول, (ان الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد... والحضري بما فقد من خلق البأس بالترف والمربى في قهر التأديب والتعليم فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد في دينه... وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه, فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة)(84).

ولما أصبح الإنسان عليه من أخلاق طابقت أو نتجت من حضارته التي نما بها آل المجتمع الحضري إلى السقوط, بما آلت عليه حضارته من السقوط, واستفحلت دولة أو حضارة جديدة قوامها القوة في سلطانها, وانتعاش الرفه في اقتصادها ثم فاضل الأخلاق لأهلها, وكل ذلك ضمن صيرورة الدورة الحضارية الخلدونية.

## الخاتمة

بعد تشخيص معالم الاجتماع الحضري من خلال العرض السابق يمكن تحديد أهم نتائج البحث فيما يأتي:

1. تم الكشف عن أفراد ابن خلدون جزء من مقدمته لدراسة المدينة مما يمكن اعتباره إسهاما نظرياً له تحت مسمى علم الاجتماع الحضري,
2. وظف ابن خلدون نظريته الحضارية عن دورة الحضارة في تفسيره لنمو واندثار المدينة .

(84) المصدر نفسه / ص 453.

3. لعبت البيئة تأثيرا على الحضارة فهي لاتنشا في المناطق الحارة جداً أو الباردة جداً وانما تنشأ في المناطق المعتدلة.
4. مراعاة اختيار مكان بناء المدينة بحيث يراعى فيه دفع المضار وجلب المنافع.
5. أعطى ابن خلدون أهمية كبيرة لعامل السكان حيث ضمنه في أكثر من جانب من جوانب بحثه عن المدينة .
6. ان المدينة شكلت مفاهيم ثقافية وأنماط حياتية , وان التحضر كان غاية البدو في الوصول إليها.
7. يتحدد الاقتصاد الحضري بعاملين: الوراثة وحوالة الأسواق .
8. ان هناك صنائع خاصة بالمدينة لا توجد إلا بها, كما ان المدينة قد تشترك بصنائع مع الريف.
9. ان لأهل المدينة أخلاق خاصة بها, وهي غالباً فاسدة تؤدي فضلاً عن عوامل أخرى إلى إنهاء حضارة المدينة.
10. ناقش المدينة على العموم ضمن سياق نظريته التي تقول بأن للمدينة عمر هو عمر الدولة, وهذه الأخيرة لها أعمار كأعمار البشر أو قد تستمر المدينة بالبقاء إذا ما اتخذت مقرأ للكرسي السياسي.

# Abstract

## Urban Sociology With Ibn Khaldoon

***Nadya Sabah Mahmood*** (*)

The topic of modern urban sociology is tackled too much. But, on the level of Arab thought, it was not so, Here, the importance of dealing with Al-Maqrizi thought comes to characterize some features of this thought . Whatever the effort is given by research, there will be sings illuminate the way for those who want to elaborate on discussing this subject within this framework the conclusions attained by the research could by summarized in the following points:

1. The main objective of this research is to prove the features of Al-Maqrizi thought then the research would be realized.
2. We can deal with so many historical books to explore so much features of the science .
3. Al-Maqrizi wrote (the book: Al-Mawa'eth Wa Al-E'etibar bi dhikr Al-Kutat wa Al-Athar) which is also called as (Al-Kutat Al-Maqriziya). He wrote this book according to a methodical construction he has precisely limited it and

(*) Dept. of Sociology – College of Arts / University of Mosul.

according to a plain title appeared in the book which (the eight headings) which he desired to comply with in his book .

4. Al-Maqrizi was motivated by many motives to compose his book one of them was religious and ethnographic as well as objective factors such the historical factor and the other was concerned with that of the urban planning.

5. The urban thought of Al-Maqrizi was organized in descanting order . He started talking about Egypt and Cairo in general . He moved to narrow ecologic circles represented by the quarter or the plan then he moved the narrowest area by studying the most famous house in Egypt and Cairo and he concluded in researching the city, marketing, residence, medical, educational, industrial services and finally that of jail .